

روائعُ الفَوائدِ مِن قصةِ الحَكيمِ العابد

(لقمان رحمه اللّٰه)

مركزُ الإبريز القرآني

١٤٤٥هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

قال عزوجل﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ **سورة لقمان: ١٢.**

(الحِكمةُ: عبارةٌ عن العلمِ المتَّصِفِ بالإحكامِ، المشتَمِلِ على المعرفةِ باللّٰهِ تباركَ وتعالى، المصحوبِ بنفاذِ البصيرةِ، وتهذيبِ النَّفسِ، وتحقيقِ الحَقِّ والعَمَلِ به، والصَّدِّ عن اتِّباعِ الهوى والباطِلِ، والحكيمُ مَن له ذلك) النووي رحمه اللّٰه .

(الحِكمةُ اسمٌ لإحكامِ وَضعِ الشَّيءِ في موضِعِه)

أبو إسماعيل الهروي.

(الحِكمةُ: فِعلُ ما ينبغي، على الوجهِ الذي ينبغي، في الوقتِ الذي ينبغي) ابن القيم .

(العُلَماءُ كثيرٌ، والحُكَماءُ قليلٌ، وإنَّما يرادُ من العِلمِ الحِكمةُ، فمن أوتيَ الحِكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا) الفُضيل بن عياض .

الباكـــورة

الحمدُ للّه رب العالمين، علّم عباده المؤمنين، وبلغهم حكمة العارفين، وأنـارَ لهم طريق السالكين، والصـلاة والسلام على خير المرسلين، وسيد الموحدين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد:

فتظلُّ قصصُ القرآن ومواعظه محلّ عناية المتدبرين العارفين، واذا اجتمعت مع القصة الحكمةُ النادرة، والخصلةُ الفائقة، والفقه الشائق تضاعف الاهتمام، وترابى التدبر، وكانت جديرةً بالقراءة العميقة، والتأمل المضاعف، وتحقيق غايةِ القرآن من الإصغاء التام، والحضور المتين..

ومن القصص اللافتة، والمواعظ الباهرة، قصة لقمان الحكيم، وووصاياه البليغة، والتي تستلزم مزيدَ عناية ودراية،

والولوج فيها بلا تردد ووقاية، ففيها روائع الفوائد، وبدائع العوائد، ومحاسن الفرائد لا سيما وهو الذي لا يعرف نسبه على وجه الحقيقة، وكان نسبه الحقيقي علمه الساحر، وحكمته البالغة، ومواعظه الرائقة، التي غطّت على جوانب الفقر والضعة والاحتقار البشري، ومع ذلك خلَّده القرآنُ، ليمنحنا درس التواضع والعبودية الحقة، وأن شرف الحكمة والعطاء الرباني، يفوق كل المزايا والخصائص والأنساب .

وهو ما نريدُ هنا في مركز الإبريز للدراسات القرآنية، إبرازه بجلاء، وجعله في صورة عالية السناء.

ونسألُ اللّه تعالى تمام الانتفاع، وكمال الارتقاء في التدبر القرآني، والتأمل القصصي.

إنه على كلّ شيء قدير.

مركز الإبريز القرآني

١٤٤٥/١١/٥هـ

التعريف بلقمان

هو رجل صالح، من فضلاء الأمم السابقة وخيارها، رفعه اللّه بالحكمة والفهم، والإصابة في القول والعمل . ولُقْمانُ: اسْمُ عَلَمٍ مادَّتُهُ مادَّةٌ عَرَبِيَّةٌ مُشْتَقٌّ مِنَ اللَّقْمِ. والأظْهَرُ أنَّ العَرَبَ عَرَّبُوهُ بِلَفْظٍ قَرِيبٍ مِن ألْفاظِ لُغَتِهِمْ عَلى عادَتِهِمْ كَما عَرَّبُوا شاوُلَ بِاسْمِ طالُوتَ وهو مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِزِيادَةِ الألِفِ والنُّونِ لا لِلْعُجْمَةِ.

قال ابن عاشور رحمه اللّه:

وذَكَرَ أهْلُ التَّفْسِيرِ والتّارِيخِ أنَّهُ كانَ في زَمَنِ داوُدَ. وبَعْضُهم يَقُولُ إنَّهُ كانَ ابْنَ أُخْتِ أيُّوبَ أوِ ابْنَ خالَتِهِ، فَتَعَيَّنَ أنَّهُ عاشَ في بِلادِ إسْرائِيلَ. وذَكَرَ بَعْضُهم أنَّهُ كانَ عَبْدًا فَأعْتَقَهُ سَيِّدُهُ وذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍعَنْ مُجاهِدٍ رحمه اللّه : أنَّ لُقْمانَ كانَ قاضِيًا

فِي بَنِي إِسْرائِيلَ فِي زَمانِ داوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ ولا يُوجَدُ ذِكْرُ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الإِسْرائِيلِيِّينَ.

قِيلَ : كانَ راعِيًا لِغَنَمٍ وقِيلَ كانَ نَجّارًا وقِيلَ خَيّاطًا. وفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ عَنِ ابْنِ وهْبٍ أَنَّ لُقْمانَ كانَ عَبْدًا لِبَنِي الحِسْحاسِ وبَنُو الحَسْحاسِ مِنَ العَرَبِ وكانَ مِن عَبِيدِهِمْ سُحَيْمٌ العَبْدُ الشّاعِرُ المُخَضْرَمُ الَّذِي قُتِلَ فِي مُدَّةِ عُثْمانَ.

وحِكْمَةُ لُقْمانَ مَأْثُورَةٌ فِي أَقْوالِهِ النّاطِقَةِ عَنْ حَقائِقِ الأَحْوالِ والمُقَرِّبَةِ لِلْخَفِيّاتِ بِأَحْسَنِ الأَمْثالِ. وقَدْ عُنِيَ بِها أَهْلُ التَّرْبِيَةِ وأَهْلُ الخَيْرِ، وذَكَرَ القُرْآنُ مِنها ما فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وذَكَرَ مِنها مالِكٌ فِي المُوَطَّأِ بَلاغَيْنِ فِي كِتابِ الجامِعِ وذَكَرَ حِكْمَةً لَهُ فِي كِتابِ جامِعِ العَتَبِيَّةِ وذَكَرَ مِنها أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ ولا نَعْرِفُ كِتابًا جَمَعَ حِكْمَةَ لُقْمانَ.

وفي تَفْسِيرِ القُرْطُبِيِّ قالَ وهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: قَرَأْتُ مِن حِكْمَةِ لُقْمانَ أرْجَحَ مِن عَشَرَةِ آلافِ بابٍ. ولَعَلَّ هَذا إنْ صَحَّ عَنْ وهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ كانَ مُبالَغَةً فِي الكَثْرَةِ.

وكانَ لُقْمانُ مَعْرُوفًا عِنْدَ خاصَّةِ العَرَبِ. قالَ ابْنُ إسْحاقَ فِي السِّيرَةِ: «قَدِمَ سُوَيْدُ بْنُ الصّامِتِ أخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ مَكَّةَ حاجًّا أوْ مُعْتَمِرًا فَتَصَدّى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّٰه عليه وسلم فَدَعاهُ إلى الإسْلامِ فَقالَ لَهُ سُوَيْدٌ: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلَ الَّذِي مَعِي، فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّٰه عليه وسلم: وما مَعَكَ؟ قالَ: مَجَلَّةُ لُقْمانَ. فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّٰه عليه وسلم: اعْرِضْها عَلَيَّ، فَعَرَضَها عَلَيْهِ، فَقالَ: إنَّ هَذا الكَلامَ حَسَنٌ والَّذِي مَعِي أفْضَلُ مِن هَذا قُرْآنٌ أنْزَلَهُ اللَّهُ. قالَ ابْنُ إسْحاقَ: فَقَدِمَ المَدِينَةَ فَلَمْ يَلْبَثْ أنْ قَتَلَتْهُ الخَزْرَجُ وكانَ قَتْلُهُ

قِيلَ يَوْمَ بُعاثٍ. وكانَ رِجالٌ مِن قَوْمِهِ يَقُولُونَ: إنّا لَنَراهُ قَدْ قُتِلَ وهو مُسْلِمٌ وكانَ قَوْمُهُ يَدْعُونَهُ الكامِلَ» اهـ. وفي الاسْتِيعابِ لِابْنِ عَبْدِ البِرِّ: أنا شاكٌّ في إسْلامِهِ كَما شَكَّ غَيْرِي.[1]

نماذج من حِكمه المنقولة

قد ذَكَرَ الآلُوسِيُّ في تَفْسِيرِهِ مِنها ثَمانِيًا وعِشْرِينَ حِكْمَةً وهي:

١- قَوْلُهُ لِابْنِهِ: (أيْ بُنَيَّ إنِ الدُّنْيا بَحْرٌ عَمِيقٌ، وقَدْ غَرِقَ فِيها أُناسٌ كَثِيرٌ فاجْعَلْ سَفِينَتَكَ فِيها تَقْوى اللَّهِ تَعالى، وحَشْوَها الإيمانُ، وشِراعَها التَّوَكُّلُ عَلى اللَّهِ تَعالى لَعَلَّكَ أنْ تَنْجُوَ ولا أراكَ ناجِيًا).

٢- وقَوْلُهُ: (مَن كانَ لَهُ مِن نَفْسِهِ واعِظٌ كانَ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ حافِظٌ، ومَن أنْصَفَ النّاسَ مِن نَفْسِهِ زادَهُ اللَّهُ

(١) انظر التحرير والتنوير ٢١/١٦٩/١٧٠.

تَعالى بِذَلِكَ عِزًّا، والذُّلُّ في طاعَةِ اللّٰهِ تَعالى أَقْرَبُ مِنَ التَّعَزُّزِ بِالمَعْصِيَةِ)؟.

٣- وقَوْلُهُ: (ضَرْبُ الوالِدِ لِوَلَدِهِ كالسَّمادِ لِلزَّرْعِ).

٤- وقَوْلُهُ: (يا بُنَيَّ إيّاكَ والدَّيْنَ فَإِنَّهُ ذُلُّ النَّهارِ وهَمُّ الليل)..

وقَوْلُهُ: يا بُنَيَّ ارْجُ اللّٰه عَزَّ وجَلَّ رَجاءً لا يُجْرِيكَ عَلى مَعْصِيَتِهِ تَعالى، وخَفِ اللّٰه سُبْحانَهُ خَوْفًا لا يُؤَيِّسُكَ مِن رَحْمَتِهِ تَعالى شَأْنُهُ).

٥- وقَوْلُهُ: (مَن كَذَبَ ذَهَبَ ماءُ وجْهِهِ، ومَن ساءَ خُلُقُهُ كَثُرَ غَمُّهُ، ونَقْلُ الصُّخُورِ مِن مَواضِعِها أَيْسَرُ مِن إِفْهامِ مَن لا يَفْهَمُ).

٦- وقَوْلُهُ: (يا بُنَيَّ حَمَلْتُ الجَنْدَلَ والحَدِيدَ وكُلَّ شَيْءٍ ثَقِيلٍ فَلَمْ أَحْمِلْ شَيْئًا هو أَثْقَلُ مِن جارِ السُّوءِ، وذُقْتُ المَرارَ فَلَمْ أَذُقْ شَيْئًا هو أَمَرُّ مِنَ الفَقْرِ).

٧- (يا بُنَيَّ لا تُرْسِلْ رَسُولَكَ جاهِلًا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ حَكِيمًا فَكُنْ رَسُولَ نَفْسِكَ) .

٨- (يا بُنَيَّ إيّاكَ والكَذِبَ فَإنَّهُ شَهِيٌّ كَلَحْمِ العُصْفُورِ عَمّا قَلِيلٍ يُغْلى صاحِبُهُ) .

٩- (يا بُنَيَّ احْضُرِ الجَنائِزَ ولا تَحْضُرِ العُرْسَ فَإنَّ الجَنائِزَ تُذَكِّرُكَ الآخِرَةَ والعُرْسَ يُشَهِّيكَ الدُّنْيا .

يا بُنَيَّ لا تَأْكُلْ شِبَعًا عَلى شِبَعٍ فَإنَّ إلْقاءَكَ إيّاهُ لِلْكَلْبِ خَيْرٌ مِن أنْ تَأْكُلَهُ) .

١٠- (يا بُنَيَّ لا تَكُنْ حُلْوًا فَتُبْلَعَ ولا تَكُنْ مُرًّا فَتُلْفَظَ).

١١- وقَوْلُهُ لابْنِهِ: لا(يَأْكُلْ طَعامَكَ إلّا الأتْقِياءُ، وشاوِرْ في أمْرِكَ العُلَماءَ) .

١٢- وقَوْلُهُ:(لا خَيْرَ لَكَ في أنْ تَتَعَلَّمَ ما لَمْ تَعْلَمْ ولَمّا تَعْمَلْ

بِما قَدْ عَلِمْتَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ احْتَطَبَ حَطَبًا فَحَمَلَ حُزْمَةً وذَهَبَ يَحْمِلُها فَعَجَزَ عَنْها فَضَمَّ إِلَيْها أُخْرى) .

١٣- وقَوْلُهُ: (يا بُنَيَّ إذا أَرَدْتَ أَنْ تُواخِيَ رَجُلًا فَأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَإِنْ أَنْصَفَكَ عِنْدَ غَضَبِهِ وإلّا فاحْذَرْهُ) .

١٤- وقَوْلُهُ: (لِتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً، ولْيَكُنْ وجْهُكَ بَسْطًا تَكُنْ أَحَبَّ إِلى النّاسِ مِمَّنْ يُعْطِيهِمُ العَطاءَ.

وقَوْلُهُ: يا بُنَيَّ أَنْزِلْ نَفْسَكَ مِن صاحِبِكَ مَنْزِلَةَ مَن لا حاجَةَ لَهُ بِكَ ولا بُدَّ لَكَ مِنهُ) .

١٥- (يا بُنَيَّ كُنْ كَمَن لا يَبْتَغِي مَحْمَدَةَ النّاسِ ولا يَكْسِبُ ذَمَّهم فَنَفْسُهُ مِنهُ فِي عَناءٍ والنّاسُ مِنهُ فِي راحَةٍ) .

١٦- وقَوْلُهُ:(يا بُنَيَّ امْتَنِعْ بِما يَخْرُجُ مِن فِيكَ فَإِنَّكَ ما سَكَتَّ سالِمٌ، وإِنَّما يَنْبَغِي لَكَ مِنَ القَوْلِ ما يَنْفَعُكَ)

وقد زاد عليها العلامة ابن عاشور رحمه اللّه:

قال : فَمِن ذَلِكَ ما في المُوَطَّأِ فِيما جاءَ في طَلَبِ العِلْمِ مِن كِتابِ الجامِعِ: مالِكٍ أنَّهُ بَلَغَهُ أنَّ لُقْمانَ الحَكِيمَ أوْصى ابْنَهُ فَقالَ: يا بُنَيَّ جالِسِ العُلَماءَ وزاحِمْهم بِرُكْبَتَيْكَ فَإنَّ اللَّهَ يُحْيِي القُلُوبَ بِنُورِ العِلْمِ كَما يُحْيِي الأرْضَ المَيْتَةَ بِوابِلِ السَّماءِ.

وفِيهِ فِيما جاءَ في الصِّدْقِ والكَذِبِ مِن كِتابِ الجامِعِ أنَّهُ بَلَغَهُ أنَّهُ قِيلَ لِلُقْمانَ: ما بَلَغَ بِكَ ما نَرى يُرِيدُونَ الفَضْلَ فَقالَ: صِدْقُ الحَدِيثِ، وأداءُ الأمانَةِ، وتَرْكُ ما لا يَعْنِينِي.

وفي جامِعِ المُسْتَخْرَجَةِ لِلْعُتْبِيِّ قالَ مالِكٌ: بَلَغَنِي أنَّ لُقْمانَ قالَ لِابْنِهِ: يا بُنَيَّ لِيَكُنْ أوَّلُ ما تُفِيدُ مِنَ الدُّنْيا بَعْدَ خَلِيلٍ صالِحٍ امْرَأةً صالِحَةً.

وفي أحكامِ القُرآنِ لابْنِ العَرَبيِّ عَنْ مالِكٍ:

أنَّ لُقْمانَ قالَ لابْنِهِ: يا بُنَيَّ إنَّ النّاسَ قَدْ تَطاوَلَ عَلَيْهِمْ ما يُوعَدُونَ وهم إلى الآخِرَةِ سِراعًا يَذْهَبُونَ، وإنَّكَ قَدِ اسْتَدْبَرْتَ الدُّنْيا مُنْذُ كُنْتَ واسْتَقْبَلْتَ الآخِرَةَ، وإنَّ دارًا تَسِيرُ إلَيْها أقْرَبُ إلَيْكَ مِن دارٍ تَخْرُجُ عَنْها. وقالَ: لَيْسَ غِنًى كَصِحَّةٍ، ولا نِعْمَةٌ كَطِيبِ نَفْسٍ، وقالَ: يا بُنَيَّ لا تُجالِسِ الفُجّارَ ولا تُماشِهِمْ، اتَّقِ أنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ عَذابٌ مِنَ السَّماءِ فَيُصِيبَكَ مَعَهم، وقالَ: يا بُنَيَّ جالِسِ العُلَماءِ وماشِهِمْ عَسى أنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ فَتُصِيبَكَ مَعَهم.

وفي الكَشّافِ: أنَّهُ قالَ لِرَجُلٍ يَنْظُرُ إلَيْهِ: إنْ كُنْتَ تَرانِي غَلِيظَ الشَّفَتَيْنِ فَإنَّهُ يَخْرُجُ مِن بَيْنِهِما كَلامٌ رَقِيقٌ، وإنْ كُنْتَ تَرانِي أسْوَدَ فَقَلْبِي أبْيَضُ. وأنَّ مَوْلاهُ أمَرَهُ بِذَبْحِ شاةٍ وأنْ

يَأْتِيَهُ بِأَطْيَبِ مُضْغَتَيْنِ فَأَتاهُ بِاللِّسانِ والقَلْبِ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِذَبْحِ أُخْرى وأَنْ أَلْقِ مِنها أَخْبَثَ مُضْغَتَيْنِ، فَأَلْقى اللِّسانَ والقَلْبَ؛ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقالَ: هُما أَطْيَبُ ما فِيها إذا طابا وأَخْبَثُ ما فِيها إذا خَبُثا.

ودَخَلَ عَلى داوُدَ وهو يَسْرُدُ الدُّرُوعَ فَأَرادَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَمّاذا يَصْنَعُ فَأَدْرَكَتْهُ الحِكْمَةُ فَسَكَتَ، فَلَمّا أَتَمَّها داوُدُ لَبِسَها وقالَ: نِعْمَ لَبُوسُ الحَرْبِ أَنْتِ. فَقالَ لُقْمانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وقَلِيلٌ فاعِلُهُ.

وفي تَفْسِيرِ ابْنِ عَطِيَّةَ: قِيلَ لِلُقْمانَ: أَيُّ النّاسِ شَرٌّ؟ فَقالَ: الَّذِي لا يُبالِي أَنْ يَراهُ النّاسُ سَيِّئًا أَوْ مُسِيئًا.

وفي تَفْسِيرِ القُرْطُبِيِّ: كانَ لُقْمانُ يُفْتِي قَبْلَ مَبْعَثِ داوُدَ فَلَمّا بُعِثَ داوُدُ قَطَعَ الفَتْوى. فَقِيلَ لَهُ. فَقالَ: أَلا أَكْتَفِي إذا

كُفِيتُ. وفِيهِ: إنَّ الحاكِمَ بِأشَدِّ المَنازِلِ وكَدَرِها يَغْشاهُ المَظْلُومُ مِن كُلِّ مَكانٍ إنْ يُصِبْ فَبِالحَرِيِّ أنْ يَنْجُوَ وإنْ أخْطَأ أخْطَأ طَرِيقَ الجَنَّةِ. ومَن يَكُنْ فِي الدُّنْيا ذَلِيلًا خَيْرٌ مِن أنْ يَكُونَ شَرِيفًا. ومَن يَخْتَرِ الدُّنْيا عَلى الآخِرَةِ تَفُتْهُ الدُّنْيا ولا يُصِبِ الآخِرَةَ.

وفِي تَفْسِيرِ البَيْضاوِيِّ: أنَّ داوُدَ سَألَ لُقْمانُ: كَيْفَ أصْبَحْتَ؟ فقالَ: أصْبَحْتُ فِي يَدِي غَيْرِي.

وفِي دُرَّةِ التَّنْزِيلِ المَنسُوبِ لِفَخْرِ الدِّينِ الرّازِيِّ: قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: إنَّ اللَّهَ رَضِيَنِي لَكَ فَلَمْ يُوصِنِي بِكَ ولَمْ يَرْضَكَ لِي فَأوْصاكَ بِي.

وفِي الشِّفاءِ لِعِياضٍ: قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: إذا امْتَلَأتِ المَعِدَةُ نامَتِ الفِكْرَةُ وخَرِسَتِ الحِكْمَةُ وقَعَدَتِ الأعْضاءُ عَنِ العِبادَةِ.

وفي كِتابِ آدابِ النِّكاحِ لِقاسِمِ بْنِ يَأْمُونَ التَّلِيدِيِّ الأخْماسِيِّ:

أنَّ مِن وصِيَّةِ لُقْمانَ: « يا بُنَيَّ إنَّما مَثَلُ المَرْأةِ الصّالِحَةِ كَمَثَلِ الدُّهْنِ فِي الرَّأْسِ يُلِينُ العُرُوقَ ويُحَسِّنُ الشَّعْرَ، ومَثَلُها كَمَثَلِ التّاجِ عَلى رَأْسِ المَلِكِ، ومَثَلُها كَمَثَلِ اللُّؤْلُؤِ والجَوْهَرِ لا يَدْرِي أحَدٌ ما قِيمَتُهُ.

ومَثَلُ المَرْأةِ السُّوءِ كَمَثَلِ السَّيْلِ لا يَنْتَهِي حَتّى يَبْلُغَ مُنْتَهاهُ: إذا تَكَلَّمَتْ أسْمَعَتْ، وإذا مَشَتْ أسْرَعَتْ، وإذا قَعَدَتْ رَفَعَتْ، وإذا غَضِبَتْ أسْمَعَتْ. وكُلُّ داءٍ يَبْرَأُ إلّا داءَ امْرَأةِ السُّوءِ.

يا بُنَيَّ لَأنْ تُساكِنَ الأسَدَ والأُسُودَ خَيْرٌ مِن أنْ تُساكِنَها: تَبْكِي وهِي الظّالِمَةُ، وتَحْكُمُ وهِي الجائِرَةُ، وتَنْطِقُ وهِي الجاهِلَةُ وهِي أفْعى بِلَدْغِها.

ونقل عنه : (يا بنيّ بِسَيْفِكَ وخُفِّكَ وعِمامَتِكَ وخِبائِكَ

وسِقائِكَ وخُيُوطِكَ ومِخْرَزِكَ، وتَزَوَّدْ مَعَكَ مِنَ الأَدْوِيَةِ ما تَنْتَفِعُ بِهِ أَنْتَ ومَن مَعَكَ، وكُنْ لِأَصْحابِكَ مُوافِقًا إلّا في مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ. يا بُنَيَّ إذا سافَرْتَ مَعَ قَوْمٍ فَأَكْثِرِ اسْتِشارَتَهم في أَمْرِكَ وأُمُورِهِمْ، وأَكْثِرِ التَّبَسُّمَ في وُجُوهِهِمْ وكُنْ كَرِيمًا عَلى زادِكَ بَيْنَهم، فَإذا دَعَوْكَ فَأَجِبْهم وإذا اسْتَعانُوا بِكَ فَأَعِنْهِمْ، واسْتَعْمِلْ طُولَ الصَّمْتِ وكَثْرَةَ الصَّلاةِ، وسَخاءَ النَّفْسِ بِما مَعَكَ مِن دابَّةٍ أَوْ ماءٍ أَوْ زادٍ، وإذا اسْتَشْهَدُوكَ عَلى الحَقِّ فاشْهَدْ لَهم، واجْهَدْ رَأْيَكَ لَهم إذا اسْتَشارُوكَ، ثُمَّ لا تَعْزِمْ حَتّى تَثْبُتَ وتَنْظُرَ، ولا تُجِبْ في مَشُورَةٍ حَتّى تَقُومَ فِيها وتَقْعُدَ وتَنامَ وتَأْكُلَ وتُصَلِّي وأَنْتَ مُسْتَعْمِلٌ فِكْرَتَكَ وحِكْمَتَكَ في مَشُورَتِهِ، فَإنَّ مَن لَمْ يُمْحِضِ النَّصِيحَةَ مَنِ اسْتَشارَهُ سَلَبَهُ اللَّهُ رَأْيَهُ، وإذا رَأَيْتَ أَصْحابَكَ يَمْشُونَ فامْشِ مَعَهم، فَإذا

رَأَيْتَهم يَعْمَلُونَ فاعْمَلْ مَعَهم، واسْمَعْ لِمَن هو أكْبَرُ مِنك سِنًّا.
وإذا أمَرُوك بِأمْرٍ وسَألُوك شَيْئًا فَقُلْ نَعَمْ ولا تَقُلْ لا فَإنَّ لا
عِيٌّ ولُؤْمٌ، وإذا تحيَّرْتم في الطَّرِيقِ فانْزِلُوا، وإذا شَكَكْتُمْ في
القَصْدِ فَقِفُوا وتَآمَرُوا، وإذا رَأَيْتُمْ شَخْصًا واحِدًا فَلا تَسْألُوهُ
عَنْ طَرِيقِكم ولا تَسْتَرْشِدُوهُ فَإنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ في الفَلاةِ
مُرِيبٌ لَعَلَّهُ يَكُونُ عَيْنَ اللُّصُوصِ أوْ يَكُونُ هو الشَّيْطانَ الَّذِي
حَيَّرَكم. واحْذَرُوا الشَّخْصَيْنِ أيْضًا إلّا أنْ تَرَوْا ما لا أرى لِأَنَّ
العاقِلَ إذا أبْصَرَ بِعَيْنِه شَيْئًا عَرَفَ الحَقَّ مِنهُ والشّاهِدُ يَرى
ما لا يَرى الغائِبُ.

يا بُنَيَّ إذا جاءَ وقْتُ الصَّلاةِ فَلا تُؤَخِّرْها لِشَيْءٍ، صَلِّها
واسْتَرِحْ مِنها فَإنّها دَيْنٌ، وصَلِّ في جَماعَةٍ ولَوْ عَلى رَأْسِ
زَجٍّ. وإذا أرَدْتُمُ النُّزُولَ فَعَلَيْكم مِن بِقاعِ الأرْضِ بِأحْسَنِها

لَوْنًا وألْيَنِها تُرْبَةً وأكْثَرِها عُشْبًا. وإذا نَزَلْتَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أنْ تَجْلِسَ، وإذا أرَدْتَ قَضاءَ حاجَتِك فَأبْعِدِ المَذْهَبَ في الأرْضِ. وإذا ارْتَحَلْتَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ ودِّعِ الأرْضَ الَّتِي حَلَلْتَ بِها وسَلِّمْ عَلى أهْلِها فَإنَّ لِكُلِّ بُقْعَةٍ أهْلًا مِنَ المَلائِكَةِ، وإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ لا تَأْكُلَ طَعامًا حَتّى تَبْتَدِئَ فَتَتَصَدَّقَ مِنهُ فافْعَلْ. وعَلَيْكَ بِقِراءَةِ كِتابِ اللَّهِ (لَعَلَّهُ يَعْنِي الزَّبُورَ) ما دُمْتَ راكِبًا، وعَلَيْكَ بِالتَّسْبِيحِ ما دُمْتَ عامِلًا عَمَلًا، وعَلَيْكَ بِالدُّعاءِ ما دُمْتَ خالِيًا. وإيّاكَ والسَّيْرَ في أوَّلِ اللَّيْلِ إلى آخِرِهِ. وإيّاكَ ورَفْعَ الصَّوْتِ في مَسِيرِكَ».

وغير ذلك من الحكم المفيدة، وقد استقصى ابن عاشور نحو سبعين حكمة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الفوائدُ من القصة

١-وجوبُ عناية الأب بأبنائه وتودده إليهم نصحا وتربية، (يَا بُنَيَّ ﴾ ومناداته هنا استرقاقًا واستعطافًا له؛ لجَذب انتباهِه وشحذ الروح للاستماع والعمل .

٢- فضلُ التوحيد وعظمته، وأنه أولى المقاصد، وأعظم المطالب . ﴿يابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: ١٣

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التوحيد يُذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله ، و أبلغ الدعاء قول: استغفر الله».(١)

٣- فداحةُ الشرك وصوره، وأنه أشنع ما ارتكب العبد(إن الشرك لظلم عظيم).» ووجه كونه عظيما، أنه لا أفظع وأبشع ممن سَوَّى المخلوق من تراب، بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئا، بمن له الأمر كله، وسوَّى الناقص

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٦٩٧

الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّى من لم ينعم بمثقال ذرة «من النعم» بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟؟!

وهل أعظم ظلما ممن خلقه اللّٰه لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، «فجعلها في أخس المراتب» جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئا، فظلم نفسه ظلما كبيرا»[١].

٤- إن أعز ما يدعو الإنسان اليه، ويحرص على موعظته أبناؤه وقرابته، قال تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) سورة الشعراء . وصغر النداء إشفاقا وترغيبا .

(١) انظر تفسير ابن سعدي ١/٦٤٨ .

٥- فضلُ الحكمة وعظمة من يؤتاها ويستطعم آثارها، وقد عرفها العلماء وهو العِلْمُ المُؤَيَّدُ بِالعَمَلِ، والعَمَلُ المُحكَمُ بِالعِلْمِ، وقيل : بأنها العِلْمُ بِالأمْرِ الَّذِي لأجْلِهِ وجَبَ الحُكْمُ، والحُكْمُ الحَمْلُ عَلى جَمِيعِ أنْواعِ الصَّبْرِ والمُصابَرَةِ ظاهِرًا بِالإيالَةِ العالِيَةِ، ولا يَتِمُّ الحُكْمُ وتَسْتَوِي الحِكْمَةُ إلّا بِحَسَبِ سَعَةِ العِلْمِ، ولبعضهم : إنَّ مَدارَها عَلى إصابَةِ الحَقِّ والصَّوابِ في القَوْلِ والعَمَلِ، ولِهَذا قالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: لا يُقالُ لِشَخْصٍ حَكِيمًا حَتّى تَجْتَمِعَ لَهُ الحِكْمَةُ في القَوْلِ والفِعْلِ، قالَ: ولا يُسَمّى المُتَكَلِّمُ بِالحِكْمَةِ حَكِيمًا حَتّى يَكُونَ عامِلًا بِها..[1]

٦- فضل ما تحلى به الرجل الصالح لقمان، وضرورة التَّخَلُّقِ بِما مُدِحَ بِهِ بِما يَحْمِلُ عَلى الصَّبْرِ والشُّكْرِ والمُداوَمَةِ

(١) فتح البيان مختصرا ١٠/٢٨٢ .

عَلى كُلِّ خَيْرٍ . وأن الحكمة امتنان إلهي (ولقد آتينا لقمانَ الحكمة).

٧- الحرصُ على الوعظ التأديبي وأهمية سوق الكَلامِ عَلى وجْهٍ يَدُلُّ عَلى تَكْرِيرِ وعْظِهِ فَقالَ: ﴿وهُوَ يَعِظُهُ﴾ أيْ يُوصِيهِ بِما يَنْفَعُهُ ويُرَقِّقُ قَلْبَهُ ويُهَذِّبُ نَفْسَهُ، ويُوجِبُ لَهُ الخَشْيَةَ والعَدْلَ.

٨- أن نعم اللّه على عبادِه تستوجب شكره تعالى، فهو واهب النعم، ومبيد النقم ..(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾، ﴿أنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أيْ: أمَرْناهُ أنْ يَشْكُرَ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى مَا أتَاهُ اللَّه وَمَنَحهُ وَوَهَبَهُ مِنَ الْفَضْلِ، الَّذِي خصَّه بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَأَهْلِ زَمَانِهِ. قال سبحانه: (لئن شكرتم لأزيدنكم) سورة إبراهيم .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ وَثَوَابُهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ (لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرُّوم: ٤٤) .

٩- أنّ بركة الشكر وعائدته تصير على أهله غالبا، كما قال : (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أَيْ مَنْ يُطِعِ اللَّه تَعَالَى فَإِنَّمَا يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ، لِأَنَّ نَفْعَ الثَّوَابِ عَائِدٌ إِلَيْهِ.

(وَمَنْ كَفَرَ) أَيْ كَفَرَ النِّعَمَ فَلَمْ يُوَحِّدِ اللَّه (فَإِنَّ اللَّه غَنِيٌّ) عَنْ عِبَادَةِ خَلْقِهِ (حَمِيدٌ) عِنْدَ الْخَلْقِ، أَيْ مَحْمُودٌ.

١٠- قبحُ ابن آدم وسوء حاله إذا تعاطى النعم بلا ذكر وشكران، وانتهى حاله إلى الإعراض والكفران والعياذ باللّه .

١١- غنى اللّه تعالى عن عباده، وسائر أعمالهم وطاعاتهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فاطر : ١٥.

١٢- اثبات اسمي الغني الحميد للّٰه تعالى، ومعناهما، أنّ الغني قال الخطابي: هو الذي استَغنَى عن الخلق وعن نُصرَتِهم وتأييدهم لملكه، فليستْ به حاجةٌ إليهم، وهم إليه فُقَرَاءُ مُحتاجُون، كما وَصَف نفسه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: ١٥). وقد ورد اسم الغني في ثمان عشرة آية من كتاب اللّٰه تعالى، منها:

قول اللّٰه تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٣).

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ (الأنعام: ١٣٣).

والحميد: هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ، حَمِدَ نَفْسَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢)، فَهُوَ سُبْحَانَهُ

المَحمُودُ عَلَى مَا خلَقَ وَشَرَعَ، وَوَهَبَ وَنَزَعَ، وَضَرَّ وَنَفَعَ، وَأَعطَى وَمَنَعَ، وَعَلَا بِذَاتِهِ وَشَأْنِهِ فَارْتَفَعَ، وَأَمْسَكَ السَّمَاءَ عَنِ الأَرْضِ أَنْ تَقَعَ، وَفَرَشَ الأَرْضَ فَانْبَسَطَ سَهْلُهَا وَاتَّسَعَ، حَمِدَ نَفْسَهُ، وَحَمِدَهُ المُوَحِّدُونَ، فَلَهُ الحَمْدُ كُلُّهُ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ رحمه الله: «الحَمْدُ كُلُّهُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ... فَإِنَّهُ المَحْمُودُ عَلَى مَا خَلَقَهُ وَأَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ، فَهُوَ المَحْمُودُ عَلَى طَاعَاتِ العِبَادِ وَمَعَاصِيهِمْ وَإِيمَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَهُوَ المَحْمُودُ عَلَى خَلْقِ الأَبْرَارِ وَالفُجَّارِ وَالمَلَائِكَةِ وَعَلَى خَلْقِ الرُّسُلِ وَأَعْدَائِهِمْ، وَهُوَ المَحْمُودُ عَلَى عَدْلِهِ فِي أَعْدَائِهِ كَمَا هُوَ المَحْمُودُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، فَكُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الكَوْنِ شَاهِدَةٌ بِحَمْدِهِ، وَلِهَذَا سَبَّحَ بِحَمْدِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ».[١]

(١) طريق الهجرتين (ص: ١٩٢).

١٣- جواز وقوع الحكمة على غير الأنبياء، ولذلك كان أكثر المفسرين على أنَّ لقمان رجل صالح وليس معدودا في الأنبياء عليهم السلام. قال ابْنُ كَثِيرٍرحمه اللّٰه : اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي لُقْمانَ؛ هَلْ كانَ نَبِيًّا أوْ عَبْدًا صالِحًا مِن غَيْرِ نُبُوَّةٍ، عَلى قَوْلَيْنِ؟ الأكْثَرُونَ عَلى الثّانِي، ويُقالُ إنَّهُ كانَ قاضِيًا عَلى بَنِي إسْرائِيلَ، فِي زَمَنِ داوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وما رُوِيَ مِن كَوْنِهِ عَبْدًا مَسَّهُ الرِّقُّ، يُنافِي كَوْنَهُ نَبِيًّا؛ لِأنَّ الرُّسُلَ كانَتْ تُبْعَثُ فِي أحْسابِ قَوْمِها، ولِهَذا كانَ جُمْهُورُ السَّلَفِ عَلى أنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وإنَّما يُنْقَلُ كَوْنُهُ نَبِيًّا عَنْ عِكْرِمَةَ، إنْ صَحَّ السَّنَدُ إلَيْهِ.(١)

١٤- أنّ الحكمة إنما تنال بطاعة اللّٰه، والقيام على مرضاته، وقد استفاض أن هذا المولى أنه رجل صالح، وعبد مبارك، فافاض اللّٰه عليه من صنوف العلم والحكمة ما بهر أهل زمانه، وخلده القرآن ثناء وتبجيلاً.

(١) انظر تفسير ابن كثير٦ / ٣٣٣ ومحاسن التنزيل القاسمي ٢٧/٨.

« وَقَالَ لِرَجُلٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ: إِنْ كُنْتَ تَرَانِي غَلِيظَ الشَّفَتَيْنِ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا كَلامٌ رَقِيقٌ، وَإِنْ كُنْتَ تَرَانِي أَسْوَدَ فَقَلْبِي أَبْيَضُ. وَقِيلَ: كَانَ رَاعِيًا، فَرَآهُ رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ عَبْدَ بَنِي فُلَانٍ؟ قَالَ بَلَى. قَالَ: فَمَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى؟ قَالَ: قَدَرُ اللَّه، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِينِي، قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ جَابِرٍ. وَقَالَ خَالِدٌ الرَّبَعِيُّ: كَانَ نَجَّارًا، فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: اذْبَحْ لِي شاة وائتني بِأَطْيَبِهَا مُضْغَتَيْنِ، فَأَتَاهُ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، فقال لَهُ: ما كان فيها شيء أَطْيَبُ مِنْ هَذَيْنِ؟ فَسَكَتَ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِذَبْحِ شَاةٍ أُخْرَى ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَلْقِ أَخْبَثَهَا مُضْغَتَيْنِ، فَأَلْقَى اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ، فَقَالَ لَهُ: أَمَرْتُكَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِأَطْيَبِ مُضْغَتَيْنِ فَأَتَيْتَنِي بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَأَمَرْتُكَ أَنْ تُلْقِيَ أَخْبَثَهَا فَأَلْقَيْتَ اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ؟! فقال له:

إنه ليس شي أَطْيَبَ مِنْهُمَا إِذَا طَابَا، وَلَا أَخْبَثَ مِنْهُمَا إِذَا خَبُثَا.
قُلْتُ: هَذَا مَعْنَاهُ مَرْفُوعٌ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ صلى اللّه عليه وسلم: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). وَجَاءَ فِي اللِّسَانِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ وَشَهِيرَةٌ،» [١]

وسئلَ عما صيّره إلى ذلك فقال: قَالَ: يَا بْنَ أَخِي إِنْ صَغَيتَ إِلَى مَا أَقُولُ لَكَ كُنْتَ كَذَلِكَ. قَالَ لُقْمَانُ: غَضِّي بَصَرِي، وَكَفِّي لِسَانِي، وَعِفَّةُ طُعْمَتِي، وَحِفْظِي فَرْجِي، وَقَوْلِي بِصِدْقٍ، وَوَفَائِي بِعَهْدِي، وَتَكْرِمَتِي ضَيْفِي، وَحِفْظِي جَارِي، وَتَرْكِي مَا لَا يَعْنِينِي، فَذَاكَ الَّذِي صَيَّرَنِي إِلَى مَا تَرَى.

١٥- أنّ من الحكمة الحقة إقامةَ التوحيد في الأرض وتربية الناس عليه، وفقه معنى الوجود، وتشنيع حال من لا يعي ذلك، وجلّ وصاياه من الحكمة المطلوبة شرعا .

(١) انظر تفسير القرطبي١٤ / ٦٠

١٦- حرمةُ الظلم وفساد مسلك حامليه والمنتمين إلى صفات أهلهِ (إن الشرك لظلم عظيم). وسبب ذلك بأنه « تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنْهُ وتَهْوِيلٌ لِأَمْرِهِ، فَإِنَّهُ ظُلْمٌ لِحُقُوقِ الخالِقِ، وظُلْمُ المَرْءِ لِنَفْسِهِ إذْ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي حَضِيضِ العُبُودِيَّةِ لِأخَسِّ الجَماداتِ، وظُلْمٌ لِأهْلِ الإيمانِ الحَقِّ إذْ يَبْعَثُ على اضْطِهادِهِمْ وأذاهم، وظُلْمٌ لِحَقائِقِ الأشْياءِ بِقَلْبِها وإفْسادِ تَعَلُّقِها».[1]

ولقبح الظلم كرهه السلف في كل شيء، ويدل لذلك ما في صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قالَ: «لَمّا نَزَلَتِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢) شَقَّ ذَلِكَ عَلى أصْحابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم وقالُوا: أيُّنا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم:

(١) انظر التحرير والتنوير٢١/ ١٧١.

لَيْسَ هو كَما تَظُنُّونَ إنَّما هو كَما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . وفيه دلاله أنّ جملة لظلم عظيم من كلام لقمان عليه السلام .

١٧- أن الشرك بالله أعلا درجات الظلم ومراتبه، لأنه وضع الشيء في غير مواضعه، كالمشرك الذي يصرف العبادة لغير خالقه، وقد سواه وعدله، وركبه في أحسن الصور والنعم.

١٨- أن قوامَ التربية الأساسية للأبناء تعليمهم التوحيد وتحذيرهم نواقضه، وفيه احتمال كون ابنه كان مشركا، وقد قيل به، أو أنه خاف عليه الغفلة والاندراج في كواكب أهل الشرك والطغيان، عافانا الله وإياكم من ذلك .

١٩- أن أصول العقائد تُنشّأ مع الأبناء من صغرهم لترسخ كالجبال، وتثبت دون ضعف أو انقباض.

٢٠- عظم حق الوالدين ووجوب برهما والإحسان اليهما ..

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان ١٤) .

وسبب التنبيه على حقهما قيل« لما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي».[1]

(١) انظر تفسير ابن سعدي ص : ٦٤٨ .

٢١- أن بر الوالدين يجري في سياق طاعة اللّٰه والقيام بالحقوق الشرعية والأخلاقية، وأن من أعظم صفات المؤمنين برهم بوالديهم والإحسان اليهم .

٢٢- أن جوهر الإحسان لهم في برهم واللطف معهم، وترقيق الكلام معهم والإصغاء لهم، وطاعتهم والدعاء لهم .

٢٣- أن الوالدين سبب للوجود بعد فضلِ اللّٰه ورحمته، ولذلك كان حقهما عظيما مكينا، لا يجحده إلا الفجارُ الأشقياء .

٢٤- ظهور حق الأم على الأب وعظم شأنهما والسبب ساطع(حملته أمه وهناً على وهن). مَعْنَاهُ: ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ، واستشعار هذا الوهن في شكلها وصحتها، كاف في البرّ والتواضع . وقِيلَ: إشارَةٌ إلى مَشَقَّةِ الحَمْلِ ومَشَقَّةِ

الوِلادَةِ بَعْدَهُ، وقِيلَ: إشارَةٌ إلى ضَعْفِ الوَلَدِ وضَعْفِ الأُمِّ مَعَهُ، ويُحْتَمَلُ أنْ أشارَ إلى تَدَرُّجِ حالِها في زِيادَةِ الضَعْفِ، فَكَأنَّهُ لَمْ يُعَيِّنْ ضَعْفَيْنِ، بَلْ كَأنَّهُ قالَ: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ والضَعْفُ يَتَزَيَّدُ بَعْدَ الضَعْفِ إلى أنْ يَنْقَضِيَ أمَدُهُ.(١)

٢٥- أن الإشارة إلى فضل الأم لا ينفي فضل الأب وحرصه على ولده (بوالديه) وقرنهما في أول الوصية دليل على وجب بره، خلافاً لمن يقر بحقّ الوالده، ويضيع الوالد .

٢٥- أن مدة الرضاع عامان، قال تعالى: ﴿وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ﴾ أيْ: فِطامُهُ يَقَعُ في انْقِضاءِ عامَيْنِ. وهذا تأكيد لحق الأم ودورها في الحمل والرضاعة.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أَيْ: تَرْبِيَتُهُ وَإِرْضَاعُهُ بَعْدَ

(١) انظر المحرر الوجيز٤ / ٣٤٢.

وَضْعِهِ فِي عَامَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (الْبَقَرَة: ٢٣٣) .

وَمِنْ هَاهُنَا اسْتَنْبَطَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّ أَقَلَّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ؛ لِأَنَّه قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ (الْأَحْقَافِ: ١٥) .[1]

٢٦- وجوب شكر المحسن، فاللّه بخلقه وفضله، والوالدان بالإيجاد والرعاية ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. وقرنهما تعالى بحقه برهان على عظم حقهما، وأن فاقده محروم مرذول، واللّه المستعان .

قالَ بعضهم : الشُّكْرُ مَبْنِيٌّ عَلى خَمْسِ قَواعِدَ: خُضُوعُ الشّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ، وحُبُّهُ لَهُ، واعْتِرافُهُ بِنِعْمَتِهِ، والثَّناءُ عَلَيْهِ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦/٣٠١.

بِها، وأنْ لا يَسْتَعْمِلَها فِيما يَكْرَهُ. هَذِهِ الخَمْسَةُ هي أساسُ الشُّكْرِ، وبِناؤُهُ عَلَيْها، فَإنَّ عُدِمَ مِنها واحِدَةٌ، اخْتَلَّتْ قاعِدَةٌ مِن قَواعِدِ الشُّكْرِ، وكُلُّ مَن تَكَلَّمَ في الشُّكْرِ، فَإنَّ كَلامَهُ إلَيْها يَرْجِعُ وعَلَيْها يَدُورُ.

٢٧- في قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤) تَعْلِيلٌ لِوُجُوبِ الامْتِثالِ؛ وثبوت الحساب، وحصول القيامة، وأن طول العمر أو التجاهل والنسيان لا ينفي وقوع المحاسبة وإتمام الحقوق، وسنة الثواب والعقاب .

٢٨- فضل منزلة الشكر، ويعرفونه : وقال الجُرْجانيُّ: (الشُّكْرُ: عبارةٌ عن معروفٍ يُقابِلُ النِّعمةَ، سواءٌ كان باللِّسانِ أو باليَدِ أو بالقَلبِ.

وقيل: هو الثَّناءُ على المحسنِ بذِكرِ إحسانِه)

(أن أشكر لي ولوالديك) أي: وصيناه بشكرنا وشكر والديه، قال سفيانُ بنُ عيينةَ: « من صلى الصلوات الخمس فقد شكر اللّٰه؛ ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين» .

٢٩- والشكرُ يختلف عن الحمد : أنَّ الحَمدَ أعَمُّ من الشُّكرِ؛ فالشُّكرُ إنَّما يكونُ على الصَّنيعةِ المتعدِّيةِ إلى الغيرِ، والحَمدُ يكونُ على ذلك وعلى الصِّفاتِ اللَّازمةِ، كالشَّجاعةِ والعِلمِ والحِلمِ ونَحوِه. فالشُّكرُ أخصُّ من الحمدِ سَبَبًا؛ لأنَّه يكونُ في مقابلةِ النِّعمةِ، والحمدُ أعَمُّ سببًا .

لكِنَّ الشُّكرَ أعَمُّ من الحمدِ مُتعَلَّقًا؛ فالشُّكرُ يكونُ باللِّسانِ والجَنانِ والأركانِ، والحمدُ يكونُ باللِّسانِ والقَلبِ؛ فبَيْنَهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ يجتمعانِ في مادَّةٍ، وينفَرِدُ كُلٌّ واحدٍ عن الآخَرِ في مادة.[1]

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٣٧).

٣٠- استيقانُ المصير الأخـروي يوجب علينا حسن العمل والاستعداد، ومراقبة اللّه في كل الأحـوال والشؤون (إلى المصير) . وأن لحظات الدنيا بحلوها ومرها منتهاها الزوال والذهاب، واللّه المستعان.

٣١- امتثالُ أوامـر الوالدين، ورفضها في معاصي اللّه تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

٣٢- خطأ الكبار والفضلاء أحياناً في التوجيه والعلم، وعدم الإصغاء لهم، وأن علوَّ مكانتهم لا يستلزم الاستجابة لهم .

٣٣- حرصُ الأبوين على جعل ابنهما على طريقهما، وأن سرهما فيه شكلا ومعنى، وتنويرا وتربية، وفي المجاهـدة التربوية حرص عميق، ومكابدة عتيدة . (وإن جاهداك).

٣٤- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (فلا تطعهما) وهذا نص حديث صحيح أخرجه أحمد وغيره.[١]

وقال عليه الصلاة والسلام : (الطاعة في المعروف) كما في الصحيح.[٢]

٣٥- أن المتابعة والاقتداء إنما تكون في الحق وفي أرباب الصلاح والإنابة (واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إلَيَّ﴾. ولوكان المرغوب عنه والدا أو قريبًا حميما، فلا قيمة القرابة حينئذ، لانها تتلاشى يوم القيامة ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ المؤمنون: ١٠١.

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: (يا معشرَ قريشٍ أنقذوا أنفسكُم من النارِ، يا معشرَ بني كَعْبٍ أنقذوا أنفسكُم من النارِ، يا معشرَ بني عبد منافٍ أنقذوا أنفسكُم من النارِ،

(١) المسند (١٠٩٥) البغوي في ((شرح السنة)) (٢٤٥٥).

(٢) البخاري (٧١٤٥) ومسلم (١٨٤٠).

يا معْشَرَ بني هاشمٍ أنقذوا أنفسكم من النارِ، يا معشرَ بنِي عبد المطلبِ أنقذوا أنفسكُم من النارِ يا فاطمةَ بنتَ محمدٍ أنقذي نفسكَ من النارِ، فإني واللّهِ ما أمْلِكُ لكُم من اللّهِ شيئا، إلا أن لكم رحِما سأبلُها ببلالها).[1]

٣٦- وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ﴾ الآيَةُ. رُوِيَ أَنَّ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ نَزَلَتا فِي شَأْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وقّاصٍ، وذَلِكَ «أَنَّ أُمَّهُ - وهِيَ حَمْنَةُ بِنْتُ أبِي سُفْيانَ بْنِ أُمَيَّةَ - حَلَفَتْ أنْ لا تَأْكُلَ ولا تَشْرَبُ حَتّى يُفارِقَ دِينَهُ ويَرْجِعَ إلى دِينِ آبائِهِ وقَوْمِهِ، فَلَجَّ سَعْدٌ فِي الإسْلامِ، ويُرْوى أنَّها كانَتْ إذا أجْهَدَها العَطَشُ شَجُّوا فاها، ويُرْوى: شَجَّرُوا، أيْ: فَتَحُوهُ بِعُودٍ ونَحْوِهِ وصَبُّوا ما يَرْمُقُها، فَلَمّا طالَ ذَلِكَ ورَأتْ أنَّ سَعْدًا لا يَرْجِعُ أكَلَتْ،» فَفي هَذِهِ القِصَّةِ نَزَلَتِ الآياتُ، قالَهُ سَعْدُ بْنُ أبِي وقّاصٍ والجَماعَةُ مِنَ المُفَسِّرِينَ. والقصة مخرجة عند الطبراني رحمه اللّه.

(١) البخاري (٢٧٥٣) ومسلم (٢٠٤) باختلاف يسير.

٣٧ - قالَ القاضِي أبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللّه:

وواطَأتِ الآيَةُ الأولى بِبِرِّ الوالِدَيْنِ وحُكْمِهِ، ثُمَّ حَكَمَ بِأنَّ ذَلِكَ لا يَكُونُ فِي الكُفْرِ والمَعاصِي، وجُمْلَةُ هَذا البابِ أنَّ طاعَةَ الوالِدَيْنِ لا تُراعى فِي رُكُوبِ كَبِيرَةٍ، ولا فِي تَرْكِ فَرِيضَةٍ عَلى الأعْيانِ، وتَلْزَمُ طاعَتُهُما فِي المُباحاتِ، وتُسْتَحْسَنُ فِي تَرْكِ الطاعاتِ النَدْبِ، ومِنهُ أمْرُ جِهادِ الكِفايَةِ، والإجابَةُ لِلْأُمِّ فِي الصَلاةِ مَعَ إمْكانِ الإعادَةِ، عَلى أنَّ هَذا أقْوى مِنَ النَدْبِ، لَكِنْ يُعَلَّلُ بِخَوْفِ هَلَكَةٍ عَلَيْها ونَحْوِهِ مِمّا يُبِيحُ قَطْعَ الصَلاةِ فَلا يَكُونُ أقْوى مِنَ النَدْبِ، وخالَفَ الحَسَنُ فِي هَذا التَفْصِيلِ، فَقالَ: إنْ مَنَعَتْهُ أُمُّهُ مِن شُهُودِ العِشاءِ الآخِرَةِ شَفَقَةً فَلا يُطِعْها.

٣٨– أن العملية الإقناعية والدعوية تتطلب المجاهدة

(١) انظر المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

والإلحاح، لا سيما من الصفوة والغُير، والأحبة والخلان، واذا بلغ الدعاة والمربون مبلغ الأسف الدعوي، تحملوا وجاهدوا في الله حق جهاده، كما تعالى عن رسول الكريم : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦) .

٣٩- فضلُ العلم المؤصل إلى الطريق الشرعي الصحيح (ما ليس لك به علم) وأن الحقائق إنما تعرف بالبراهين العلمية، وفيه ذم التقليد الأعمى، وعدم إعارة العقل، وهوان الأصنام المجردة من العلم المفيد، كَأَنَّهُ قالَ: إياك أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا لا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، أيْ لا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا، يَعْنِي أَنَّهُ مِن بابِ قَوْلِهِمْ: هَذا لَيْسَ بِشَيْءٍ،..!

٤٠- وجوب الإحسان إلى الوالدين ولو كانا مشركين (وصاحبهما في الدنيا معروفا)، والمَعْرُوفُ: الشَّيْءُ المُتَعارَفُ

المَأْلُوفُ الَّذِي لا يُنْكَرُ فهو الشَّيْءُ الحَسَنُ، أيْ صاحِبْ والِدَيْكَ صُحْبَةً حَسَنَةً.

٤١- سماحة ديننا الإسلامي في حسن العلاقات الاجتماعية، وأن اختلاف الدين لا يمنع الصلة الاجتماعية والمعروف الطيب، الذي لا يناقض الإسلام، بل يكشف فضله وروعة اخلاق حملته .

٤٢- في التعبير بالصحبة تنبيه على عدم الموافقة والمخالطة الشديدة . (وصاحبهما في الدنيا) أي: في أمورها التي لا تتعلق بالدين، ما دمت حياً صحاباً (معروفاً) ببرهما إن كانا على دين يقران عليه وقيل: صاحبهما بمعروف وهو البر والصلة، والعشرة الجميلة، والخلق الجميل، والحلم والاحتمال، وما يقتضيه مكارم الأخلاق، ومعالي الشيم.[١]

(١) فتح البيان للقنوجي ١٠/٢٨٥.

٤٣- إنما يكون التقليد والاتباع لخلص المومنين، حيث استبان طريقهم، وطابت وجهتهم . (واتبع سبيل من أناب أي: رجع (إليّ) والخطاب وإن كان ظاهره للابن، فهو لسائر المكلفين، أي: اتبع أيها المكلف دين من أقبل إلى طاعتي، وآثَرَ دعوتي من عبادي الصالحين، بالتوبة والإخلاص، وهو النبي - صلى اللّه عليه وسلم - وأصحابه، ومن سلك سبيلهم من العبادِ المقربين.

٤٤- سعةُ علم اللّه تعالى وإحاطته بكل أحوال الخلائقِ سرهم وعلانيتهم، قديمهم وحديثهم . ﴿فَأُنَبِّئُكم بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان ١٥)، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ سورة آل عمران، وقوله: ﴿أحصاه اللّه ونسوه﴾ سورة المجادلة. وقوله : ﴿يَوْمَ

﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ سورة الطارق . وقوله : ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ سورة القيامة .

٤٥- من آثار هذه الإحاطة ضرورة استعداد المرء ومراقبته ربه، واستثمار سني العمر في الطاعات والأعمال المباركات ﴿قَدْ أفلح من زكاها وقد خابَ من دساها﴾ سورة الشمس.

٤٦- ومن سعة علمه تعالى الآية التالية: ﴿يَا بُنَيِّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾.

٤٧- أن كثرة السبل في الدنيا ما ينبغي أن تعمي عن سبيل الحق والهدى.. ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ...﴾ فليس كل السبل مستطابة، ولا كل النواحي جيدة، ولكنها الأنوارُ الساطعة، والدلائل النورانيّة.

٤٨- أنّ الاتباع يكون بتقفي طريق العلوم، وأسباب الاستنارة، وسؤال العارفين، وحضور مجالس العلماء النابهين، قال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤) .

﴿أفَمَن يَعْلَمُ أنَّما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَن هو أعْمى إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الألْبابِ﴾ (الرعد:١٩) .

٤٨- ومن وصايا الأبناء النافعة : وجوب استدامة مراقبة اللّه، والحث على خشيته، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُرَ، كما تكشفه الاية الجليلة : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾. إِنَّ الْمَظْلَمَةَ أَوِ الْخَطِيئَةَ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ. وَجَوَّزَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي

قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا﴾ ضَمِيرَ الشَّأْنِ وَالْقِصَّةِ. وَجوَّزَ عَلَى هَذَا رَفْعَ ﴿مِثْقَالَ﴾ وَالْأَوَّلُ أَوْلَى.

« وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أَيْ: أَحْضَرَهَا اللَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ، وَجَازَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الْأَنْبِيَاءِ: ٤٧)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزَّلْزَلَةِ:٧، ٨)، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحَصَّنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَّاء، أَوْ غَائِبَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي أرجاء السموات أَوِ الْأَرْضِ فَإِنَّ اللَّه يَأْتِي بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَيْ: لَطِيفُ الْعِلْمِ، فَلَا

تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دقت وَلَطُفَتْ وَتَضَاءَلَتْ ﴿خَبِيرٌ﴾ بِدَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ».(١)

٤٨- وخبر الصخرة تحت الأرضين مطعون فيه ولا يثبت فيه شيء مرفوع، قال ابن كثير رحمه الله: وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُرادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أَنَّهَا صَخْرَةٌ تَحْتَ الْأَرَضِينَ السَّبْعِ، ذَكَرَهُ السُّدِّي بِإِسْنَادِهِ ذَلِكَ الْمَطْرُوقِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ إِنْ صَحَّ ذَلِكَ، وَيُرْوَى هَذَا عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَالثَّوْرِيِّ، والمِنهال بْنِ عَمْرٍو، وَغَيْرِهِمْ. وَهَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، كَأَنَّهُ مُتَلَقًّى مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، وَلَا تَكْذَّبُ، وَالظَّاهِرُ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- أَنَّ الْمُرادَ: أَنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ فِي حَقَارَتِهَا لَوْ كَانَتْ دَاخِلَ

(١) تفسير ابن كثير٦/ ٣٠٢.

صَخْرَةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُبْدِيهَا وَيُظْهِرُهَا بِلَطِيفِ عِلْمِهِ ..![1]

٤٩- وآيةُ الصخرة والخردل قيل هي دليل على قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ايضاً . وذكرها ليفهم عنه الابن، لِأَنَّ الْخَرْدَلَةَ يُقَالُ: إِنَّ الْحِسَّ لَا يُدْرِكُ لَهَا ثِقَلًا، إِذْ لَا تُرَجِّحُ مِيزَانًا أَيْ لَوْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ رِزْقُ مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ جَاءَ اللَّهُ بِهَا حَتَّى يَسُوقَهَا إِلَى مَنْ هِيَ رِزْقُهُ، أَيْ لَا تَهْتَمُّ لِلرِّزْقِ حَتَّى تَشْتَغِلَ بِهِ عَنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَعَنِ اتِّبَاعِ سَبِيلِ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ.

٥٠- وَرُوِيَ أَنَّ ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تَقَعُ فِي سُفْلِ الْبَحْرِ أَيَعْلَمُهَا اللَّهُ؟ فَرَاجَعَهُ لُقْمَانُ بِهَذِهِ الْآيَةِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَنَّهُ أَرَادَ الْأَعْمَالَ، الْمَعَاصِيَ وَالطَّاعَاتِ، أَيْ إِنْ تَكُ الْحَسَنَةُ أَوِ الْخَطِيئَةُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ، أَيْ لَا تَفُوتُ الْإِنْسَانَ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٣٨٣.

الْمُقَدَّرُ وُقُوعُهَا مِنْهُ. وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَتَحَصَّلُ فِي الْمَوْعِظَةِ تَرْجِيَةٌ وَتَخْوِيفٌ مُضَافٌ ذَلِكَ إِلَى تَبْيِينِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى.[١]

٥٠- عظمة ربنا تبارك وتعالى قدرةً وعلماً، بحيث لو كَانَتْ تِلْكَ الذَّرَّةُ مُحَصَّنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَّاء، أَوْ غَائِبَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي أرجاء السموات أَوِ الْأَرْضِ(٢) فَإِنَّ اللَّه يَأْتِي بِهَا؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أَيْ: لَطِيفُ الْعِلْمِ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقت وَلَطُفَتْ وَتَضَاءَلَتْ ﴿خَبِيرٌ﴾ بِدَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ.

٥١- اثبات اسمي اللّه (اللطيف والخبير). ومعناهما:

اللطيف: ولهذا الاسم معنيان عظيمان:

(١) انظر تفسير القرطبي٤٤ / ٦٦.

الأول : أن اللّه يعلم دقائق الأمـور وخفاياها، ومـا ـ في الضمائر والصدور .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي شارحاً معنى هذا الاسم:

«الذي لَطُفَ علمه حتى أدرك الخفايا، والخبايا، وما احتوت عليه الصدور، وما ـ في الأراضي من خفايا البذور».[1]

المعنى الثاني : أن اللّه تعالى يحسن إلى عباده من حيث لا يحتسبون.

قال الزجاج : « وَهُوَ ـ في وصف اللّه يُفِيد أَنه المحسن إِلَى عباده ـ في خَفَاء وَستر من حَيْثُ لَا يعلمُونَ، ويسبب لَهُم أَسبَاب معيشتهم من حَيْثُ لَا يحتسبون ».

قـال المحقق ابـن القيم رحمه اللّه : « واسـمه اللطيف

(١) «تفسير أسماء اللّه الحسنى » للسعدي (ص: ٢٢٥) .

يتضمن : علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية « انظر »[١]

وقال في اعتقاد الفرقة الناجية :

وهو اللطيفُ بعبده ولعبده ** واللُطفُ في أوصافه نوعانِ

إدراك أسرار الأمور بخبرةٍ ** واللطف عند مواقع الإحسان

فيريك عزَّته ويُبدي لطفَه ** والعبدُ في الغفلاتِ عن ذا الشَّانِ[١]

والخبير: هو كما قال ابن جرير: في قوله: (نَبَّأني العَلِيمُ الخَبير): أي العليم بسرائر عباده؛ وضَمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم؛ الذي لا يَخفى عنه شيء. وقال: خبيرٌ بكلِّ ما يَعْملونه ويكسبونه؛ مِنْ حَسنٍ وسيء، حافظُ ذلك عليهم؛ ليُجازيهم على كل ذلك.

(١) شفاء العليل « (ص: ٣٤).

(٢) انظر الكافية الشافية « (ص: ١٧٩).

قال الخطابي:» هو العَالم بكُنْه الشيء، المُطّلعُ على حقيقته، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ (الفرقان: ٥٩). يقال: فلانٌ بهذا الأمر خبيرٌ، وله به خَبَرٌ، وهو أخبرُ به مِنْ فُلان، أي: أعْلم. إلا أنَّ الخُبْرَ في صفة المخلوقين؛ إنّما يستعملُ في نوعِ العلم الذي يَدخلهُ الاختبارُ، ويتوصلُ إليه بالامتحان، والاجتهاد، دون النوع المعلوم ببدائه العقول. وعِلْم اللّه سبحانه، سَواءٌ فيما غمضَ مِنَ الأشْياء وفيما لَطفَ، وفيما تجلّى به منه وظهر، وإنّما تخلّفت مدارك عُلُوم الآدميين الذين يَتَوصلون إليها بمقدِّمات من حسٍّ، وبمعاناةٍ من نظرٍ وفكرٍ، ولذلك قيل لهم: ليس الخَبَرُ كالمعاينة، وتعالى اللّه عن هذه الصفات علواً كبيراً« اهـ .

٥٢- بعد التوحيد والبر وسعة العلم والقدرة، يأمره

بالوصية الرابعة (إقامة الصلاة) فيقول : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أَيْ: بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا، والإقامة تختلف عن مجرد الفعل، بل هي مشروطة مصونة.

٥٣- وقيل الأمر بالصلاة تَكْمِيلًا لِنَفْسِكَ، ويُروى أَنَّهُ قالَ لَهُ:» يا بُنَيَّ إذا جاءَ وقْتُ الصَّلاةِ فَلا تُؤَخِّرْها لِشَيْءٍ صَلِّها، واسْتَرِحْ مِنها، فَإنَّها دَيْنٌ، وصَلِّ فِي جَماعَةٍ، ولَوْ عَلى رَأْسِ زُجٍّ، ﴿وأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ تَكْمِيلًا لِغَيْرِكَ، والظّاهِرُ أنَّهُ لَيْسَ المُرادُ مَعْرُوفًا ومُنْكَرًا مُعَيَّنَيْنِ« .

٥٤- فضلُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلو شأنه، وانه كان مشهورا في الأمم السابقة، ومن صميم دينهم وتربيتهم، فقد قرنه بالصلاة والواجبات العظام، وفي القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (ال عمران:١١٠).

وفي الحديث الصحيح يقول صلى اللّٰه عليه وسلم : (والَّذي نفسي بيدِه لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهَوُنَّ عن المنكرِ أو ليوشِكَنَّ اللّٰه يبعثُ عليكم عذابًا منه ثمَّ تدعونه فلا يستجيبُ لكم).[1]

٥٥- فضيلة الصبر، وأنه من خصال المومنين، ونصائح المربين، وحوائج الداعين (واصبر على ما اصابك).

قال إبن عاشور رحمه اللّٰه:

انْتَقَلَ مِن تَعْلِيمِهِ أُصُولَ العَقِيدَةِ إلى تَعْلِيمِهِ أُصُولَ الأعْمالِ الصّالِحَةِ فابْتَدَأها بِإقامَةِ الصَّلاةِ، والصَّلاةُ التَّوَجُّهُ إلى اللّٰهِ بِالخُضُوعِ والتَّسْبِيحِ والدُّعاءِ في أوْقاتٍ مُعَيَّنَةٍ في الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَدِينُ بِها لُقْمانُ، والصَّلاةُ عِمادُ الأعْمالِ لِاشْتِمالِها عَلى الِاعْتِرافِ بِطاعَةِ اللّٰهِ وطَلَبِ الِاهْتِداءِ لِلْعَمَلِ الصّالِحِ.

(١) رواه الترمذي (٢١٦٩).

وإقامَةُ الصَّلاةِ إدامَتُها والمُحافَظَةُ عَلى أدائِها في أوْقاتِها.

وشَمِلَ الأمْرُ بِالمَعْرُوفِ الإتْيانَ بِالأعْمالِ الصّالِحَةِ كُلِّها عَلى وجْهِ الإجْمالِ لِيَتَطَلَّبَ بَيانَهُ في تَضاعِيفِ وصايا أبِيهِ كَما شَمِلَ النَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ اجْتِنابَ الأعْمالِ السَّيِّئَةِ كَذَلِكَ.

والأمْرُ بِأنْ يَأْمُرَ بِالمَعْرُوفِ ويَنْهى عَنِ المُنْكَرِ يَقْتَضِي إتْيانَ الأمْرِ وانْتِهاءَهُ في نَفْسِهِ لِأنَّ الَّذِي يَأْمُرُ بِفِعْلِ الخَيْرِ ويَنْهى عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ يَعْلَمُ ما في الأعْمالِ مِن خَيْرٍ وشَرٍّ، ومَصالِحَ ومَفاسِدَ، فَلا جَرَمَ أنْ يَتَوَقّاها في نَفْسِهِ بِالأوْلَوِيَّةِ مِن أمْرِهِ النّاسَ ونَهْيِهِ إيّاهم.[1]

٥٦- تخصيص هذه الطاعات دليل على فضلها وترابطها

((إن ذلك من عزم الأمور) .

(إن ذلك) الطاعات المذكورة التي وصاه بها (من عزم

(١) انظر التحرير والتنوير٢١/ ١٦٤.

الأمـور) أي: مما جعله اللّٰه عزيمـة، وأوجبـه على عباده، وحتمه على المكلفين، ولم يرخص في تركه وقيل: المعنى من حق الأمور التي أمر اللّٰه بها، والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم أي: من معزومات الأمور، أو بمعنى العازم كقوله فإذا عزم الأمر.

قال المبرد: إن العين تبدل حاء فيقال: عزم وحزم وقال ابن جريج: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، وعزائم أهل الحـزم السالكين طريق النجاة، وصـوب هذا القرطبي، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم.

٥٧- فائدة تعقيب الصبر بعد الأمـر والنهي، ما يلحق الناصح والداعية من أذى وابتلاءات بسبب غيرته ونصحه،

كما قال تعالى: ﴿ما يُقالُ لَكَ إلاّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ (فصلت: ٤٣) .

وقال في سورة الرعد : (ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) .

٥٨- أن المسألة الدعوية شاقة متينة، تتطلب الصبر والاحتمال، ويلحق أصحابها ما لحق أنبياء اللّه من سخرية واذى، ومتاعب واستهزاء . قال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾ سورة الذاريات .

٥٩- أن الأمـر بالعرف يكون حسب الجهد والطاقة، ويتطلب فقها وعلماً، وليس كل الناس يحسنه، وقد جعل له الشارع الحكيم درجات وآداباً، كما قال في حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه: (من رأى منكم (من رأى منكم منكرًا فليغيرّه بيدِه فإن لم يستطعْ فبلسانِه . فإن لم يستطعْ فبقلبِهِ وذلك أضعفُ الإيمانِ) رواه مسلم .

قال الشيخ ابن باز رحمه اللّه:" التغيير للجميع حسب استطاعته؛ لأن الرسول صلى اللّه عليه وسلم يقول: من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان لكن التغيير باليد لابد أن يكون عن قدرة لا يترتب عليه فساد أكبر وشر أكثر، فليغير باليد في بيته: على أولاده، وعلى زوجته، وعلى خدمه، وهكذا الموظف في الهيئة المختصة المعطى له صلاحيات، يغير بيده حسب التعليمات التي لديه، وإلا فلا يغير شيئًا بيده ليس له فيه صلاحية؛ لأنه إذا غير بيده فيما لا يدخل تحت صلاحيته يترتب عليه ما هو أكثر شرًا، ويترتب بلاء كثير وشر عظيم بينه وبين الناس، وبينه وبين الدولة، ولكن عليه أن يغير باللسان كأن يقول: (اتق اللّه

يا فلان، هذا لا يجوز)، (هـذا حـرام عليك)، (هـذا واجب عليك)، يبين له بالأدلة الشرعية باللسان. أما باليد فيكون في محل الاستطاعة، في بيته، أو فيمن تحت يده، أو فيمن أذن له فيه من جهة السلطان أن يأمر بالمعروف، كالهيئات التي يأمرها السلطان ويعطيها الصلاحيات، يغيرون بقدر الصلاحيات التي أعطوها على الوجه الشرعي الذي شرعه اللّٰه لا يزيدون عليه، وهكذا أمير البلد يغير بيده حسب التعليمات التي لديه ". [١]

(١) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز (٨/ ٢٠٧).

٦٠- وفي الصبر الدعوي تربية على الإيمان والاحتمال، وتطلع إلى الثواب، لأنه لا يطيقه إلا من يبتغي ما عند اللّه، ولذلك كان حليةَ الناصحين عبر التاريخ (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) سورة الأحقاف .

وقال سبحانه : ﴿ولَنَبْلُوَنّكم حَتّى نَعْلَمَ الُمجاهَدِينَ مِنكم والصّابِرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُم﴾ (محمد:٣١) .

٦١- فضل التواضع مع الناس وتوقيرهم، وهذه الوصية السابعة قوله: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يَقُولُ: لَا تُعرِضْ بِوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلَّمْتَهُمْ أَوْ كَلَّمُوكَ، احْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ، وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَلَكِنْ ألِنْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ،كما هو الهدي النبوي، وأخلاق الصالحين . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍرحمه اللّه : وَأَصْلُ الصَّعَرِ: دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي أَعْنَاقِهَا أَوْ رُؤُوسِهَا، حَتَّى تُلفَتَ أعناقُها عَنْ رُؤُوسِهَا، فَشُبِّهَ بِهِ الرَّجُلُ الْمُتَكَبِّرُ،

وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ حُنيٍ التَّغْلبي:

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صعّر خَدّه ** أقمْنَا لَه منْ مَيْلِه فَتَقَوّمَا

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي شِعْرِهِ:

وَكُنَّا قَديمًا لَا نقرُّ ظُلامَةً ** إِذَا مَا ثَنوا صُعْر الرُّؤُوسِ نُقِيمها

٦٢- مشروعية المشي اللين المتواضع، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيْ: جَذِلًا مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا، لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ يُبْغِضُكَ اللَّه؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أَيْ: مُخْتَالٍ مُعْجَبٍ فِي نَفْسِهِ، فَخُورٌ: أَيْ عَلَى غَيْرِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ سورة الإسراء.

٦٣- وفيها ذم الكبر والخيلاء من بني آدم، لا سيما فيما نبه عليه هنا في الهيئة والمشي، وأن فعل ذلك ينافي التدين الحق، والسلوك الطيب، وحسن الخلق. قال تعالى:

﴿واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٨).

٦٣- أن هذه الأخلاق المرذولة تحرمُ صاحبها اللحوق بسمت عباد الرحمن المتقين ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ سورة الفرقان .

قال العلامة ابن القيم رحمه اللّه: « كان إذا مشى، تكفَّأ تكفُّؤاً، وكان أسرَعَ الناس مِشيةً، وأحسنَها وأسكنها قال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وسلم، كأن الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحداً أسرع في مِشيته من رسول اللّٰه صلى اللّه عليه وسلم، كأنما الأرضُ تُطوى له، وإنا لَنَجْهَدُ أنفسَنا وإنه لغيرُ مُكْتَرِث. وقال علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه: كان رسولُ اللّٰه صلى اللّه عليه وسلم إذا مشى تكفَّأ تكفؤاً كأنما ينحطُّ مِنْ صَبَبٍ،

وقال مرة: إذا مشى، تقلّع قلتُ: والتقلُع: الارتفاعُ من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مِشية أولي العزم والهِمة والشجاعة، وهي أعدلُ المِشيات وأرواحُها للأعضاء، وأبعدُها من مِشية الهَوَجِ والمهانة والتماوت، فإن الماشيَ، إمَّا أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، وهي مِشية مذمومة قبيحة، وإمّا أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مِشيةٌ مذمومة أيضاً، وهي دالة على خِفَّة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يُكثِرُ الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً، وإمّا أن يمشي هَوْناً، وهي مِشية عبادِ الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ (الفرقان: ٦٣) قال غيرُ واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبُّر ولا تماوت، وهي مِشية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فإنه مع

هذه المِشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرضُ تُطوى له، حتى كان الماشي معه يُجْهِدُ نفسَه ورسولُ اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم غيرُ مُكْتَرِثٍ، وهذا يدل على أمرين: أن مِشيته لم تكن مِشية بتماوت ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات.(١)

٦٤- في التواضع للناس وترك التصعير والترفع، إحلال للمحبة وتحقيق الوحدة والتجانس، وفيها نبذ للعنصرية، وتجسيد الإخاء الايماني (إنما المؤمنون إخوة) سورة الحجرات .

٦٥- هنا ختم بعد ذم المرح(إن اللّٰه لا يحب كل مختال فخور) مرح مختال، ومتعال على الناس بماله أو شرفه..!

وفي الإسراء: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧).

(١) انظر زاد المعاد١ / ١٦١.

والمعنى: إنك لن تخرق الأرض بمشيك عليها تكبراً حتى تبلغ آخرها ،وكذلك ولن تبلغ قدرتك إلى أن تطاول الجبال حتى يكون عظم جثتك حاملاً لك على الكبر والاختيال فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها . ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال وتساويها بكبرك، فما الحامل لك..؟!

ولقد أحسن من قال:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً	**فكم تحتها قوم هم منك أرفعُ**
وإن كنت في عز وحرز ومنعةٍ	**فكم مات من قوم همُ منك أمنعُ..!**

على ما أنت فيه وأنت أحقر وأصغر من كل واحد من الجمادين، فكيف يليق بك الكبر.

٦٦- بيان الطريقة السوية في المشي (واقصد في مشيك)

أي: توسط فيه، والقصد ما بين الإسراع والبطء، يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتمادين، ولا

يثب وثوب الشياطين. وقد ثبت «أن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - كان إذا مشى أسرع »، فلا بد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة، ..!

وقد تقدمت الإشارة إلى هديه عليه الصلاة والسلام في المشي والحركة .

٦٧- مشروعيةُ غض الصوت واستعماله استعمالا طيبا معتدلا بلا تهاون ولا إزعاج (واغضض من صوتك) : أي: أنقص منه واخفضه، ولا تتكلف رفعه فإن الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع، (إن أنكر الأصوات) أي: أوحشها وأقبحها (لصوت الحمير) تعليل للأمر بالغض من الصوت على أبلغ وجه وآكده، قال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير، أي: صوت قوي وآخره شهيق، أي: صوت ضعيف، وهما صوتا أهل النار، وأنكر،..!

وانما يجوز رفعه في المحافل والمنابر والخطب وشبهها، ويكون رفعه بلا إفراط أيضا، واللّه ولي التوفيق .

٦٨- لما كانَ رَفْعُ الصَّوْتِ فَوْقَ العادَةِ مُنْكَرًا، كانَ خَفْضُهُ كذاك دُونَها تَماوُتًا أَوْ دَلالًا وتَكَبُّرًا، ويدل عليه قوله (من صوتك) فهي تبعيضية توحي بالتوسط والاعتدال .

٦٩-

٧٠- لقد دَعَتْ هَذِهِ الآياتُ إلى مَعالِي الأَخْلاقِ، وهي أُمَّهاتُ الفَضائِلِ الثَّلاثِ: الحِكْمَةِ والعِفَّةِ والشَّجاعَةِ، وأَمَرَتْ بِالعَدْلِ فِيها، وهي وظِيفَةُ التَّقْسِيطِ الَّذِي هو الوَسَطُ الَّذِي هو مَجْمَعُ الفَضائِلِ، ونَهَتْ عَنْ مَساوِئِ الأَخْلاقِ، وهي الأَطْرافُ الَّتِي هي مَبْدَأُ الرَّذائِلِ الحاصِلُ بِالإفْراطِ والتَّفْرِيطِ، فَإقامَةُ الصَّلاةِ الَّتِي هي رُوحُ العِبادَةِ المَبْنِيَّةِ عَلى العِلْمِ هي سِرُّ الحِكْمَةِ والنَّهْيِ، أَمَرَ بِالشَّجاعَةِ ونَهى عَنِ الجُبْنِ، وفي النَّهْيِ

عَنِ التَّصْعِيرِ وما مَعَهُ نَهْيٌ عَنِ التَّهَوُّرِ، والقَصْدُ فِي المَشْيِ والغَضُّ فِي الصَّوْتِ أَمْرٌ بِالعِفَّةِ ونَهْيٌ عَنِ الاسْتِماتَةِ والجُمُودِ والخَلاعَةِ والفُجُورِ، وفِي النَّهْيِ عَنِ الاسْتِماتَةِ نَهْيٌ عمّا قَدْ يَلْزَمُها مِنَ الجَرِيزَةِ، وهي الفِكْرُ بِالمَكْرِ المُؤَدِّي إلى اللَّعْنَةِ، وعَنِ الانْحِطاطِ إلى البَلَهِ والغَفْلَةِ.[1]

٧١- ومن الفوائد أيضا: أن الشرف المفاخر به بالعلم والحكمة، وقوة الصلة بالله، لا بالنسب والحسب، أو المشي والتضخم الاجتماعي.

٧٢- أنّ الحكمة العظيمة سبب للعز وبلوغ مراقي المجد.

وأن تقواك المتدفقة سبب للتوفيق، وانفراج الأمور.

٧٣- فضيلة التوسط والقصد في الأخلاق والأمور والأحكام. والقَصْدُ: هو الوَسَطُ العَدْلُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، فالقَصْدُ

(١) انظر نظم الدرر للبقاعي١٥ / ١٨٠.

فِي المَشْيِ هو أَنْ يَكُونَ بَيْنَ طَرَفِ التَّبَخْتُرِ وطَرَفِ الدَّبِيبِ ويُقالُ: قَصَدَ فِي مَشْيِهِ. فَمَعْنَى ﴿اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ ارْتَكِبِ القَصْدَ.

والغَضُّ: نَقْصُ قُوَّةِ اسْتِعْمالِ الشَّيْءِ. يُقالُ: غَضَّ بَصَرَهُ، إذا خَفَضَ نَظَرَهُ فَلَمْ يُحَدِّقْ. ويروى حديث: (خير الأمور أوساطها) ولا يصح مرفوعاً.[1]

٧٤- أنّ صلاح الفرد واستقامة حياته بصحة التوحيد والصلاة، وملامسة دين الفطرة، وسلامة البيت والأسرة ببر الوالدين، وسلامة التعاملات بمحاسن الأخلاق المذكورة.

فاحتوت السورة أصول الاستقرار الوجودي.

٧٥- ومن بَلاغَةِ القُرْآنِ وبَدِيعِ إيجازِهِ أنْ كانَ قَوْلُهُ ﴿أَنِ

(١) أخرجه البيهقي في سننه (٣ / ٢٧٣) عن عمرو بن الحارث وضعَّفه العراقيُّ في تخريج الإحياء (٣ / ٢٠٩).

اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ جامِعًا لِمَبْدَأِ الحِكْمَةِ الَّتِي أُوتِيَهَا لُقْمانُ، ولِأَمْرِهِ بِالشُّكْرِ عَلى ذَلِكَ، فَقَدْ جَمَعَ قَوْلُهُ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الإِرْشادَ إِلى الشُّكْرِ، مَعَ الشُّرُوعِ فِي الأَمْرِ المَشْكُورِ عَلَيْهِ تَنْبِيهًا عَلى المُبادَرَةِ بِالشُّكْرِ عِنْدَ حُصُولِ النِّعْمَةِ.

٧٦- لما كانت مراقبة الأب لولده متعذرة على الدوام ناسب تذكيره بمراقبة الله تعالى به، وأن يتفكر في جوارحه وسلوكه، فالله محيط به مطلع على سريرته (إنها إن تك مثقال حبة من خردل ..). وهذا اصل في المراقبة الذاتية .

٧٧- ومثل هذه المراقبة تورث الخوف من الله وخشيته (ولمن خاف مقام ربه جنتان) سورة الرحمن.

وقال سبحانه : ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)﴾ سورة النازعات .

قال مجاهد : هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل مواقعة الذنب فيقلع عنه،، وقيل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها، والهوى ميل النفس إلى شهواتها .

٧٨- شرفُ المنيبين إلى الله، وفضلهم في معرفتهم النهج الصحيح، والطريق القويم. والإنابة هي : قال ابن القيِّم رحمه الله: «الإنابة: الإسراع في مرضاة الله مع الرجوع إليه في كل وقت، وإخلاص العمل له، وقال أيضًا: الإنابة إلى الله إنابتان: الأولى: إنابة إلى ربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها، المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ (الروم: ٣٣).

والثانية: إنابة أوليائه، وهي: إنابة لألوهيته، إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته،والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.[1]

٧٩- وصحَّ من دعائه عليه الصلاة والسلام طلب الإنابة: (رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا).[2]

٨٠- أن التربية في الصغر أعمق في المعاني، وأرسخ في الانتفاع، ولذلك كان العلم في الصغر كالنقش على الحجر، وما أحوج الآباء والمربين إلى تغذية هذا الجانب في نفوس الناشئة، أشد من تغذيتهم الجسدية ..!

٨١- أنّ الحكمة الممنوحة للقمان رحمه اللّه دليل على اتصالها بالعلم ومعرفة حق اللّه على عباده، وامتثال تلك الوصايا الحسان .

(١) مدارج السالكين٤/٤٣٤ .

(٢) رواه أبو داود(١٥١٠) واللفظ له، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠).

وتمتع المرء بالحكمة قولا وعملا دليل على نباهته وفقهه، وتوفيق اللّٰه له. وقد قدمنا شيئًا من عباراته الدالة على ذلك والمنضمة لمواعظ القرآن الرائعة .

ومن القصص التي تدل على حكمته وفطنته الكبيرتين ايضاً وقد تقدمت ، هو أنّه عندما جاء سيده يوماً بشاة وقال له: (اذبح هذه الشاة وائتني بأطيب مضغتين فيها) فذبحها وجاء بكلٍ من اللسان وكذلك القلب، ثمّ في اليوم التالي قال له سيده اذبح هذه الشاة وائتني بأخبث مضغتين فيها، فآتاه اللّٰه كلًا من القلب وكذلك اللسان، فتعجب سيده من ذلك، فما كان من لقمان الحكيك إلا أن قال: (ليس شيئاً أطيب منهما إذا طابا ولا شيئَ أخبث منهما إذا خَبُثاً)، حينها أمر سيده بتحريره لحكمته وذكائه، وبعد تحرّره قرر الخروج من مصر والسفر إلى فلسطين، وقد كان ذلك في فترة بعث سيدنا داود

عليه السلام، حيث عمل أجيراً عنده وقد لاحظ النبي داود حكمة هذا الرجل، فما كان منه إلا أن عينه قاضٍ على بني إسرائيل، ثمّ أصبح فيما بعد قاضٍ للقضاة.

٨٢- إن التوحيدَ والصلاة والأمر والنهي ومحاسن الأخلاق قوامُ المجتمعات الإسلامية، وصمامُ أمان السفينة المجتمعية، فلا يكاد يخرقها تمرد، إلا بانتقاض بعض هذه العناصر الاجتماعية المهمة، ولذلك تحتم علينا المحافظة عليها، وهي ذات اتصال مكين بالتمكين الايماني، قال تبارك وتعالى : ﴿الّذِينَ إنْ مَكّنّاهم فِي الأرْضِ أقامُوا الصّلاةَ وآتَوُا الزّكاةَ وأمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ﴾ (الحج: ٤١).

٨٣- التنبيهُ في الشريعة على أعمال جليلة خصها المولى تعالى وسماها (عزم الأمور) وقد تكررت في ثلاثة مواضع لا رابع لها في الكتاب كله، ختم كل منها بـ «عزم الأمور»:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦) .

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧)، ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣).

أي معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون، أي مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لما فيه من كمال المزيّة والشرف، أو لكونه عزمة من عزمات اللّٰه التي أوجب عليكم القيام بها، يقال عزم الأمر أي شدّه وأصلحه، وأصله ثبات الرأي على الشيء إلى إمضائه. وقد تقدّم شرح شيء من ذلك .

٨٤- كان التمثيل بالخردل كناية عن صغرها المتناهي،

وأن اللّٰه لا يعجزه شيء سبحانه، والمِثْقالُ بِكَسْرِ المِيمِ: ما يُقَدَّرُ بِهِ الثِّقَلُ ولِذَلِكَ صِيغَ عَلى زِنَةِ اسْمِ الآلَةِ.

والحَبَّةُ: واحِدَةُ الحَبِّ وهو بِذْرُ النَّباتِ من سَنابِلَ أَوْ قُطْنِيَّةٍ بِحَيْثُ تَكُونُ تِلْكَ الواحِدَةُ زَرِيعَةً لِنَوْعِها مِنَ النَّباتِ، وقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ قَوْلُهُ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ﴾ (البقرة: ٢٦١) وقَوْلُهُ ﴿إنَّ اللَّهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوى﴾ (الأنعام: ٩٥).

والخَرْدَلُ: نَبْتٌ لَهُ جِذْرٌ وساقٌ قائِمَةٌ مُتَفَرِّعَةٌ أُسْطُوانِيَّةٌ أَوْراقُها كَبِيرَةٌ يُخْرِجُ أَزْهارًا صَغِيرَةً صُفْرًا سُنْبُلِيَّةً تَتَحَوَّلُ إلى قُرُونٍ دَقِيقَةٍ مُرَبَّعَةِ الزَّوايا تُخْرِجُ بُزُورًا دَقِيقَةً تُسَمّى الخَرْدَلَ أيْضًا، ولُبُّ تِلْكَ البُزُورِ شَدِيدُ الحَرارَةِ يَلْدَغُ اللِّسانَ والجلد، وهي سَرِيعَةُ التَّفَتُّقِ يَنْفَتِقُ عَنْها قِشْرُها بِدَقٍّ أوْ إذا بُلَّتْ بِمائِعٍ، فَتُسْتَعْمَلُ فِي الأدْوِيَةِ ضِماداتٍ عَلى المَواضِعِ الَّتِي فِيها التِهابٌ داخِلِيٌّ من نَزْلَةٍ أوْ ذات

جَنْبٍ وهو كَثِيرُ الِاسْتِعْمالِ فِي الطِّبِّ قَدِيمًا وحَدِيثًا، وقَدْ أخَذَ الأَطِبّاءُ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ بِعَقاقِيرَ أُخْرى.

قَالَ الْحَسَنُ رحمه الله: مَعْنَى الْآيَةِ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالْأَشْيَاءِ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ آخِرُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا لُقْمَانُ فَانْشَقَّتْ مَرَارَتُهُ مِنْ هيبتها فمات.[1]

٨٥- تغليب العقل على العاطفة في المساومة بين الحق وحنوّ الوالدين ودينهما، فلقد أرشد القرآن إلى اتباع العلم، الذي يسوقه العقل وليس العاطفة والاتباع الاعمى، وقد ربى الإسلام اتباعه على هذه المنهج الوجودي والعلمي، كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة البقرة.

(١) انظر التحرير والتنوير٢١/ ١٦٣.

وقوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ سورة الأنعام.

وقوله ﴿لِمَن كان لَهُ قَلْبٌ أوْ ألْقى السّمْعَ وهْوَ شَهِيدٌ﴾ سورة ق.

وقوله ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ سورة الإسراء.

• وقوله (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِيأَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣ مريم﴾.

وقوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَالْحَقَّ﴾ سورة سبأ.

وقوله ﴿ائْتُونِي بِكِتابٍ مِن قَبْلِ هَذا أوْ أثارَةٍ مِن عِلْمٍ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ سورة الأحقاف.

٨٦- ضخامةُ هذا الكون وعظمته، ولكنه هيّن ضئيل في علم الله وقدرته..﴿يَا بُنَيِّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ

فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ...﴾ لقمان: ١٦.

٨٧- أنّ شقاء الأم ووهنها في حملها بالولد والقيام على رضاعته وتربيته، وشقاء الأب في إصلاحه ورزقه وتعاهده بالتوجيه والرعاية، كل يعمل على شاكلته وقد يسره الله لذلك..!

٨٨- مع تربية الأبناء على محبة التوحيد ونبذ الشرك، فإن من المستحسن تعظيم شأن الهلال في قلوبهم كما في معنى حبة الخردل..! وَفِي سَبَبِ قَوْلِ لُقْمانَ لِابْنِهِ هَذا قَوْلانِ. أحَدُهُما: أنَّ ابْنَ لُقْمانَ قالَ لِأبِيهِ: أرَأيْتَ لَوْ كانَتْ حَبَّةٌ فِي قَعْرِ البَحْرِ أكانَ اللَّهُ يَعْلَمُها؟ فَأجابَهُ بِهَذِهِ الآيَةِ، والثّانِي: أنَّهُ قالَ: يا أبَتِ إنْ عَمِلْتُ الخَطِيئَةَ حَيْثُ لا يَرانِي أحَدٌ، كَيْفَ يَعْلَمُها اللَّهُ؟ فَأجابَهُ بِهَذا،..! وفي هذا تعليق قلب الابن بالله

تعالى، وأنك لست في مأمن أو انزواء عن قدرته العظيمة .

٨٩- وحكي في قوله : (يأت بها اللّه) ثلاثة أقوال عن السلف، فقيل : يعلمها، وقيل يظهرها، وقيل: يأْتِ بِها اللّهُ في الآخِرَةِ لِلْجَزاءِ عَلَيْها.

٩٠- قيل سبب بدئه بالتوحيد والتحذير من الشرك، (لا تُشْرِكْ بِاللّهِ) أن ابنه كا كافِرًا ليس على الجادة، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّى أسْلَمَ، ومَن وقَفَ عَلى لا تُشْرِكْ، جَعَلَ بِاللّهِ قَسَمًا.

٩١- جاءت حكمة لقمان بعد ذكره سبحانه بعض مظاهر خلقه وحكمته الجليلة فيها وغفلة المشركين عنها، فقد قيل في المناسبة : ولَمّا ثَبَتَتْ حِكْمَتُهُ سُبْحانَهُ وأنَّهُ أبْعَدَهم عَنْها بِما قَضى عَلَيْهِمْ مِنَ الجَهْلِ وغَباوَةِ العَقْلِ وآتاها مَن تابَ، واعْتَصَمَ بِآياتِ الكِتابِ، تَوَقَّعَ السّامِعُ الإخْبارَ عَنْ بَعْضِ مَن آتاهُ الحِكْمَةَ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ كانُوا مِنَ المُحْسِنِينَ، فَوَضَعُوا الأشْياءَ في

مَواضِعِها بِأنْ آمَنُوا عَلى قَوْلِهِ: ﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ أوْ عَلى مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ: لِأنّا أضْلَلْناهم بِحِكْمَتِنا وآتَيْنا الحِكْمَةَ الَّذِينَ قَبِلُوا آياتِنا وأحْسَنُوا التَّعَبُّدَ لَنا فَما عَبَدُوا صَنَمًا ولا مالُوا إلى لَهْوٍ، لِأنَّ ذَلِكَ عَيْنُ الحِكْمَةِ لِكَوْنِهِ وضْعًا لِلشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ، فَهو تَقْدِيرٌ لِتَخْصِيصِ النَّبِيِّ ..

بِالرِّسالَةِ: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا﴾ بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ والحِكْمَةِ ﴿لُقْمانَ﴾ وهو عَبْدٌ مِن عَبِيدِنا ﴿الحِكْمَةَ﴾ وهو العِلْمُ المُؤَيَّدُ بِالعَمَلِ، والعَمَلُ المُحْكَمُ بِالعِلْمِ.(١)

٩٢ – ولَمّا كانَتِ الحِكْمَةُ قاضِيَةً بِذَلِكَ، أجْرى اللَّهُ سُبْحانَهُ آثارَ عَدْلِهِ عَلى ظَواهِرِ أصْفِيائِهِ دُونَ بَواطِنِهِمْ، ثُمَّ عَقَّبَتْ ذَلِكَ بِإيرادِ آثارِ فَضْلِهِ عَلى بَواطِنِهِمْ وظَواهِرِهِمْ حَتّى صارَ مِن قاعِدَةِ الحِكْمَةِ الإلَهِيَّةِ تَفْوِيضُ مَمالِكِ الأرْضِ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ فِيها كالنَّجاشِيِّ حَيْثُ بِيعَ فِي صِغَرِهِ، وذَلِكَ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٥/١٦٠.

بِالاسْتِقْراءِ، فَمِن كَمالِ تَرْبِيَةِ الحَكِيمِ لِمَن يُرِيدُ إعْلاءَ شَأْنِهِ أنْ يَجْرِيَ عَلى ظاهِرِهِ مِن أثَرِ العَدْلِ ما فِيهِ تَكْمِيلٌ لَهم وتَنْوِيرٌ لِمَدارِكِهِمْ وتَطْهِيرٌ لِوُجُودِهِمْ وتَهْذِيبٌ وتَأْدِيبٌ - إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِن فَوائِدِ التَّرْبِيَةِ..!

٩٣- أن الحق يغلب الكثرة وهو أخف بالاتباع فلا تطعهما، ولو كانا اثنين وزيادة وانت واحد، فالحق معك، والعدل في جانبك.. لأن الجوهر هو النص والدليل، فالتوحيد دين الفطرة، والشرك دين الخرافيين والمقلدين .

٩٤- في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانة للمجتمع وحفظ لسيره وحركته، ولَمّا كانَتْ هَذِهِ الدّارُ سَفِينَةً لِسَفَرِ مَن فِيها إلى رَبِّهِمْ، وكانَتِ المَعاصِي مُفْسِدَةً لَها، وكانَ فَسادُ السَّفِينَةِ مُغْرِقًا لِكُلِّ مَن فِيها: مَن أفْسَدَها ومَن أهْمَلَ المُفْسِدَ ولَمْ يَأْخُذْ عَلى يَدِهِ، وكانَ الأمْرُ بِالمَعْرُوفِ نَهْيًا عَنِ المُنْكَرِ،

صَرَّحَ بِهِ فَقالَ: ﴿وانْـهَ﴾ أيْ كُلَّ مَن قَـدَرْتَ عَلى نَهْيِهِ ﴿عَنِ المُنْكَرِ﴾ حُبًّا لِأخِيكَ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، تَحْقِيقًا لِنَصِيحَتِكَ، وتَكْمِيلًا لِعِبادَتِكَ، لِأنَّهُ ما عَبَدَ اللَّه أحَدٌ تَرَكَ غَيْرَهُ يَتَعَبَّدُ لِغَيْرِهِ، ومِن هَذا الطِّرازِ قَوْلُ أبِي الأسْوَدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالى:

ابْدَأْ بِنَفْسِك فانْهَها عَنْ غَيِّها .. فَإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأنْتَ حَكِيمُ

٩٥- إن الأصوات نعمة من اللّه تعالى، تعرف بها الكائنات، ولكن استعمالها فوق الحاجة والاعتدال يخرجها عن كونها نعمةً طبيعية، وتصبح عادةً منكرة، وسلوكاً مناقضاً، واللّه المستعان .

٩٦- لما كان صوت الحميرِ منكرا استحب الاستعاذة من الشيطان ففي الحديث الصحيح : «إذَا سِمِعْتُمْ نَهِيقَ الحَمِيرِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإنَّهَا رَأَتْ شَيْطاناً» .

وقال سفيانُ الثوري رحمه اللّه : صياح كل شيءٍ تسبيحٌ إلا صياحُ الحمير.

ولفظ الحديث عن أبي هريرة قال: رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فاسألوا اللّه مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَأَنَّهُ رأى شَيْطَاناً».[1]

٩٧- في الآيات تربية على الشجاعة الاجتماعية، فقوله: وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصابَكَ: يَقْتَضِي حضاً على تغيير المنكر وإن نال ضررا، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذى أحياناً. وأَنَّ الفرار من الإصلاح ليس من مسالك الأنبياء والمصلحين . وفي القرآن (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل).

٩٨- مناسبةُ ذكر الصلاة بعد التوحيد، لأنها أهم ركائزه ومثبتاته، إذ لَمّا مَنَعَهُ مِنَ الشِّرْكِ وخَوَّفَهُ بِعِلْمِ اللّهِ وقُدْرَتِهِ، أَمَرَهُ بِما يَلْزَمُهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وهو الصَّلاةُ وهي العِبادَةُ لِوَجْهِ اللّهِ مُخْلِصًا، وبِهَذا يُعْلَمُ أنَّ الصَّلاةَ كانَتْ في سائِرِ المِلَلِ، غَيْرَ

(١) البخاري(٣٣٠٣) ومسلم (٢٧٢٩).

أنَّ هَيْئَتَها تختلف من أمة لأخرى . وقد ذكرت في غير ما سورة وقصة ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِيَ﴾ سورة طه .

وقال تعالى عن إسماعيل : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ ...﴾، سورة مريم .

٩٩- أنّ مخالفة للإنسان لبني مجتمعه في الشكل والتعامل بغية الترفع عليهم سبب للمقت الإلهي والمجتمعي، بحيث يعيش عزلة، ويمقته الآخرون، ويخسر علاقات كثيرة، ويحرم طرائق من الثواب، والله المستعان .

١٠٠- إنما وجد الإنسان لعبادة الله، ونفع عباده والاندماج فيهم حسنا وتعاملا، لا ترفعاً وتكبراً، إنه لا يحب كل مختال فخور .



تم ما أُرِيدُ تبيينه حول قصة الحكيم العابد، نسأل اللّه القبول وحسن الانتفاع ، وأن يجعلنا من عباده الطيبين الحكماء المصلحين، إنه جواد كريم..